بساط الريح

سألني الكثيرون من أصدقائي، لماذا توقفت عن الكتابة، والآخرون سألوني متى ستكون مدونتي القادمة، أمّا البعض منهم فقد لامني أنني قد توقفت عن إرسال مدوناتي لهم، معتقدين أنني قد نسيتهم أو تجاهلتهم. الحقيقة هي أنني قد توقفت عن الكتابة بعد أن كتبت مدونتي غير المنشورة بعنوان "أبو بعير" التي تتحدث عن رئيس وهمي والتي حظي القليلون بقراءتها ونالت اعجابهم كثيرًا، لكنني فضلت عدم نشرها لحدّتها ولذاعتها. لقد كان جوابي لهؤلاء الأصدقاء مليئًا بالغرور والنشوة الزائفة أنني أعاني من "جفاف أدبي" على غرار الجفاف العاطفي، واضعًا نفسي في صف أدباء الصف الأول في العالم العربي. ولكنني كما تعلمون جيدًا لست كذلك فأنا أكتب بين الفينة والأخرى معبرًا عمّا يجول في نفسي من خواطر وأفكار وانتقادات، أراها تحسّن مجتمعنا المركّب، فأعرضها أمام القرّاء غير مجدد فيها إنّما أقوم بتسليط الضوء عليها من وجهة نظري الخاصة.

اعترف أنني في الآونة الأخيرة، مثلي مثل الكثيرين من الناس، أعيش حالةً من الملل والضجر. قد تكون هذه الحالة ناجمة عن وضعنا الاجتماعي بعد فترة الكورونا التي بدأت تدقّ على أبوابنا مجددًا، بعد أن اعتقدنا أنّها قد ولّت إلى الجحيم بغير عودة. أو هذه حالتنا بعد الأوضاع السياسيّة الصعبة التي مرّت بها البلاد من أحداث ومواجهات وحملات انتخابية متكررة، في حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني. وقد تكون هذه الحالة نتيجة الأوضاع الاقتصادية المتدهورة، أو نتيجة انتشار البطالة في المجتمع عامة والمجتمع العربي خاصة، وبين صفوف الشباب على وجه التحديد.

ومن مؤشرات وتداعيات هذه الحالة عدم مقدرتنا على السفر إلى خارج البلاد لقضاء عطلنا وإجازاتنا السنوية، فالأوضاع بين كرّ وفرّ، فقد تحولت الدول إلى ألوان قوس قزح على خارطة السفر. فهذه الدولة حمراء وتلك صفراء وغيرها خضراء، وسرعان ما يتبدل الأخضر إلى أصفر أو أحمر دون سابق انذار أو مقدمات.

ها أنتم تتساءلون ما الذي تغير بالفعل ؟

ما أعرفه أننا قد فقدنا الشغف الدافعية على القيام بأمور كثيرة، فأنا لمن يعرفني مولع بالسفر والرحلات، فلا أكاد أستقر في بلد حتى أنتقل إلى بلدٍ آخر، فقد زرت بلدانًا كثيرة من الشرق والغرب.

زرت متاحفها وفنادقها الفاخرة وأسواقها المليئة بكل ما تشتهيه الأنفس من طيّبات وبضائع، وأكلت من أكلها وشربت من مائها وعصائرها اللذيذة، ورأيت نساءها ورجالها بمختلف ألوانهم وعاداتهم وأبحرت في أنهارها وقنواتها الواسعة منها والضيّقة.

فزُرت "باريس" بشوارعها وباحاتها ووقفت تحت قوس النصر متتبعًا خطوات نابليون بونابرت عائدًا من فتوحاته الكثيرة، وصعدت إلى برجها العالي وتجولت في متحف "اللوفر" متفحصًا لوحاته الجميلة القديمة وأنا أشق طريقي بصعوبة نحو لوحة "الموناليزا" المعروفة، متسكعًا بشوارع الحي اللاتيني المعروف بشبابه الثائر على العادات والتقاليد متعقبًا خطى "جان بول سارتر وڤيكتور هيجو وآلبير كامو وموليير" وغيرهم من الشعراء والفنانين. متنقلًا منها بالقطار إلى "بروكسل" في "بلجيكا" لتذوق طعم الشوكولاتة اللذيذة بشتى أنواعها وأشكالها، ومنها إلى "أمستردام" وقنواتها المائية وأنهارها الملتفة كالأفعى، المليئة بالسوّاح الأجانب من شتى بقاع العالم، محمّلين بالقوارب تحت طواحينها الهوائية العالية، والتي تتلاعب فيها الرياح العاتية مخلّفة خلفها تيارات هوائية منعشة برائحة الحشيش الماريجوانا حيثما سرت في أرجائها، فهي مسموحة هنا ومشروعة بعكس دول العالم. ومنها إلى حيّ النوافذ الحمراء المعروفة حيث يباع الهوى بسعر اليورو لكل راغب به وعلى بعد أميال قليلة من متحف "فان جوخ" الذي قطع أذنه في سبيل حب فاشل.

زُرت "روما" وشربت من قهوتها "الاسبريسو" السوداء السميكة الكثيفة في رغوتها الذهبية المتماسكة، واحتسيتها كما يفعل الايطاليون وهم واقفون على الأقدام ويرتشفونها بلذة مقدّسة تفوق أي لذّة عرفتموها، ويبدأون بها يومهم منذ ساعات الصباح الباكر وحتى ساعات الليل المتأخرة. كما زُرت "الكولوسيوم" فيها وهو حلبة ضخمة كانت تستعمل كحلبة قتال بين المصارعين لتسلية الشعب أو لإشغالهم عن مشاكل البلاد، كما كان مرتعًا للنشاطات الفكرية والثقافية منذ مئات السنين. ومنه إلى استاد "الاليمبيكو" الشهير لمشاهدة مباريات فريق روما العريق ذي

القمصان الخمريّة الداكنة وجمهوره الصاخب ونجومه المتألقين ولاعبه الكبير "فرانشيسكو توتي" امبراطور روما الحقيقي، مستمتعًا بتمريراته البارعة على أنغام الشتائم باللغة الإيطالية الجميلة كأنها قصيدة حب يعزفها العاشق "روميو" على قيثارته لمحبوبته "جولييت" تحت شرفتها في مدينة "ڤيرونا".منتقلٌ منها إلى مدينة "برشلونة الكتالونية الاسبانية" الرائعة بكنائسها العالية على رأسها كنيسة العائلة المقدسة "ساغرادا فاميليا" التي يقصدها الزوار من شتى أرجاء العالم وذلك لجمال منظرها ولارتفاعها الشاهق وكثرة المجسمات والتماثيل الحجرية التي صممها المعماري العالمي "أنطونيو جاودي". وإذ ما زرت "برشلونة" فكيف لا نزور ملعب "الكامب نو" بلاعبيه المشهورين وفنانهم الأول "ليو ميسي" خليفة "مارادونا" المتحكم بالكرة كأنها جزء لا يتجزأ من قدمه الذهبيّة. ها أنا أصعد القطار متّجهًا جنوبًا إلى الأندلس مستعيدًا أمجاد العرب والمسلمين، زائرًا قصر الحمراء و "قُرطبة واشبيلية" حيث العصر الذهبي الذي طالما تغنينا به، نبكي حظّنا وخيبتنا. لا يشبه رثاء المدن الأندلسية رثاء أي مدينة عربية أخرى، فربما لم يكن هناك أروع من المدن الأندلسية التي قال عنها شعراؤها يومًا:

أنهارها فضّة، والمسك تربتها والخزُّ روضَتُها والدَرُّ حَصباءُ

وللهواء بها لُطفٌ يرِقُّ بهِ من لا يَرِقُّ وتبدو منه أهواءُ

تركت الأندلس وقد ترقرق دمع عيني في فؤادي ورحت أنوح دومًا في بلادي، منتقلًا من الغرب إلى الشرق الأقصى، إلى اليابان بحضارتها المميزة وعاداتها العريقة وآدابها وأخلاقها المختلفة عن أقوام العالم كافة. زائرًا لمعابدها الوثنية متنقلًا بقطاراتها السريعة المسمّاة بالرصاصة حيث تقطع المسافات بسرعة خيالية لا يعيها العقل البشري.

أحب الكتب والمكتبات فزرت مكتبة "الإسكندرية" في مصر حيث المخطوطات القديمة والأصول النادرة لأوائل الكتب التي تفوح منها رائحة الحبر القديم المعتق. وعرّجت على الاهرامات في "الجيزة" ومتّعت أنظاري بعظمة الفرعونيين ومنها إلى سوق خان الخليلي الشهير في القاهرة المزدحمة ناسًا وبضاعًة. وفاحت فيها رائحة البخور والعطور الممزوجة برائحة التبغ المنبعثة من روؤس الاراجيل الطويلة وقرقرتها عازفة سمفونية شرقية في مقاهيها القديمة.

أقرّ وأعترف أنني أحب الطعام الشهي وأسعى باحثًا عنه في كل مكان جديد أحط به، فالطعام ثقافة وحضارة وليس

مجرد ملئ للبطون.

لكل حضارة وشعب مطبخه وطعامه ومذاقاته الخاصة. فالكوروسون في باريس لا مثيل له بكل العالم، وعجين البيتزا في نابولي ليس كأي عجين عرفناه، والسوشي في اليابان على أصوله بألوان وأحجام ومحتويات غريبة عجيبة، كما كان طعم البوظة في روما لا تضاهيها أي بوظة في العام كله.

وعلى سيرة الأكل، أجد نفسي مرغماً ان أتوقف عند محبوبتي الرائعة من بين كل المدن والعواصم، مدينتي الجميلة التي تتضمن كل ما ذكرت سابقًا. انها مدينة إسطنبول، معشوقتي الجاثمة بكل فخر واعتزاز على مضيق البسفور بمياهه الزرقاء، حيث الحضارة والجمال والتاريخ والتراث، ورائحة قهوتها التركية، قهوة لها طعم عزة وكبرياء تذكرك بمحمد الفاتح، وسليمان القانوني وأبواب القسطنطينية، ومأكولاتها الشهيّة اتي تشتم رائحتها حيثما تذهب وأينما تلتفت. لا ننسى حلوياتها الشهيّة اللذيذة ومحلات حافظ مصطفى المليئة بالبقلاوة بالفستق الحلبي القادم من مدينة "غازي عنتاب" العريقة، وحلقومها المزركش بشتى الألوان والأطعمة المتنوعة، والكنافة بالبوظة التي تذوب في الفم في ملحمةٍ أبدية بين البارد والساخن. ولا ننسى أسواق إسطنبول المليئة بالبضائع والسلع من كل حدب وصوب والتي تلائم جميع الأذواق والأعمار والمناسبات.

آه كم اشعر بالسعادة الآن، أشعر أنني أطير وأزور كل مدينة ذكرتها لكم وأستعيد ذكرياتي بها متجاهلاً زيارتي " لموسكو وسان بيتر سبورج وأثينا وبرلين وڤيينا" وغيرها من المدن العريقة.

أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بالرحلة التي أخذتكم بها معي حول العالم دون تعب أو عناء منكم، ودون أن تكلفكم فلسًا واحدًا.

ملاحظة: لا تنسوا يا أصدقائي أنّ رحلتكم هذه معنا لا تُلزمكم بفحص كورونا أو الدخول إلى حجر صحي لا ليوم ولا لأسبوع.

كل عام وانتم بخير

٢٠٢١/٧/١٩

أ.أيمن جبارة